النهار

الاثنين ١٤ نيسان ٢٠٠٨ - السنة ٧٤ - العدد ٢٣٣٢٤

٣٣ عاماً على ذكرى اندلاع الحرب اللبنانية
ذاكرة الحرب معطلة ومبدأ المحاسبة والمساءلة لا يزال استنسابياً
كيف يمكن الجيل الجديد ان يتحصّن في ظلّ التعتيم على الماضي وتجهيل الفاعلين؟

هي الذكرى تعود بطقوسها كل عام من دون اي عبرة حتى اليوم. لا شيء يطمئن. ذاكرة الحرب معطلة، حيناً بقرار رسمي وطوراً برغبة دفينة لدى اللبنانيين في ابقائها في سجنها. ولا يزال مبدأ المحاسبة والمساءلة استنسابياً حتى الآن رغم الآمال المعلقة على اعادة تفعيل مبدأ الجريمة والعقاب. البلد يغلي، المؤسسات مشلولة والسلاح موجود، فماذا يردع انطلاقة الشرارة الاولى؟

"هل الحرب فقط هي القصف والمدافع؟ ألسنا في حال استنفار تام ومواقف متشنجة وحرب استنزاف لأعصابنا؟". تتساءل اميلي خوري (ربة منزل) وهي التي اختبرت الحرب في طفولة امضتها متنقلة بين الملاجئ فعرفت الخوف والرعب والالم وفقدت احباء فيها، فلا تريدها ان تتكرر. "اعيش الهاجس الذي اخذ يتجسد في كوابيس ليلية، ارى فيها اولادي يذهبون الى المدرسة ولا يعودون لان هناك من اختطفهم، فأستفيق في الليل مرعوبة اقفز من فراشي لأتفقدهم". هو الخوف من تكرار الحرب الذي اخذنا نسمعه يتردد في كل المجالس.

"كل منا في لحظة او اخرى يداعبه الحلم المستحيل بأن يستيقظ من دون ذاكرة" تقول المحللة النفسية الفرنسية ميشلين انريكيز. غير ان امرأ ما في داخلنا يخون دائماً عملية الالغاء. فما يرفض الوعي ان يفكر به يستمر في الوجود بقوة فعل مستمر على حياتنا وقدرة مخيفة على التوالد. في لبنان اقفل النقاش حول جرائم الحرب وبقيت ذاكرة الحرب الجماعية لدى اللبنانيين من المحرمات التي لا يريد احد التحدث عنها. وبدأت الخشية من ان تتكرر الحرب ثانية تكبر.

"انا اخشى ان يفتح ملف المفقودين والمخطوفين من جديد". هكذا تبادرك وداد حلواني، رئيسة لجنة المفقودين والمخطوفين. تضيف: "صرت خايفي يصير في مخطوفين جداد وفي لجنة جديدة، البلد على كف عفريت والقيادات مش فرقاني معا".

المفقودون: جرح الذاكرة

منذ ثلاثة اعوام تنتصب "خيمة اهالي المفقودين والمعتقلين" مقابل بيت الامم المتحدة في وسط بيروت، شاهدة رمزية على جرح ذاكرة اهل واقارب واصدقاء من اقتنصهم الخطف والاعتقال والمصير المجهول. منذ اختفاء أحبتهم في الحرب وهم يطالبون بكشف مصيرهم، من دون ان يلقوا الجواب الشافي. هم مصرون على معرفة "حقيقة" مصير احبائهم، رغم القرار الرسمي بتعطيل الذاكرة في اعوام ما بعد الحرب، الذي كرّسه قانون العفو آنذاك. صحيح انه قبل الانسحاب السوري من لبنان لم تكن الحكومة اللبنانية تتكلم رسمياً وعلنياً على ملف المعتقلين والمفقودين، اما اليوم فأصبحت تتناوله جزئياً عبر اثارة ملف المعتقلين اللبنانيين في السجون السورية، من دون الكلام على المفقودين على الاراضي اللبنانية. تقول حلواني "اين الجدية في معالجة ملفنا؟ ما نخشاه هو الاستغلال السياسي لقضية انسانية، اذ تقتصر المطالبة الرسمية على المعتقلين في السجون السورية. المعتقلون ايضاً تتم المتاجرة بقضيتهم". وتتساءل عن الخطوات الجدية التي قامت بها السلطة رسمياً لتبين ان هذا الملف مهم فتعمل على انهائه. تتابع "لم يتم التقدم بأي خطوة جدية في هذا الاتجاه، باستثناء انهم شكلوا ثلاث لجان في الاعوام الماضية لم تتميز عن بعضها بشيء، اذ لم تكن لها اي صلاحيات او مهام محددة وواضحة، واصبحنا نستنتج ان التوصية الرسمية لها، طمس الحقائق.

ورغم ان استشهاد الرئيس رفيق الحريري والانسحاب السوري بدّلا الامور رأساً على عقب، فتحوّل الحديث فجأة عن العفو وتهميش مفهوم المسؤولية الى تعزيز مفهوم "الحقيقة"، والمساءلة و"الجريمة والعقاب"، غير ان الاستنساب لا يزال سيد الموقف، فلم تنسحب المطالبة بالحقيقة والمحاسبة على قضايا وانتهاكات اخرى". تتابع حلواني "اليوم امور كثيرة يجري الكشف عنها وتضافرت الجهود للكشف عن جريمة العصر في مقتل الرئيس رفيق الحريري ورفاقه، واخذت القضية طريقها الى المحكمة الدولية للكشف عن المجرمين. ونحن نتساءل: لمَ هناك ملفات نجد لها حلولاً ونطالب لها بالعدالة وملفات اخرى لا نلتفت اليها؟!". ربما أسيء مبدأ استعمال الحقيقة، اذ اصبح هناك "امتياز الحقيقة"، كما هناك "امتيازات الطوائف" يقول لقمان سليم من "امم للتوثيق والابحاث" الا ان "الجانب المضيء من الكلام على الحقيقة في الاعوام الاخيرة هو تكريس مبدأ التحقيق والتحقيق الدولي". يتابع سليم "قبل الانسحاب السوري وفي اعوام ما بعد الحرب كان الافلات من

العقاب سيد الموقف، ولم نكن نستطيع تحت الاحتلال ومع عودة الميليشيات بصورة اخرى الى الحكم، ان نحقق فعل الاعتراف بالارتكابات. ولا يزال الامر غامضاً ايضاً حتى اليوم، اذ يتم التلويح والمطالبة بالمفقودين في السجون السورية من دون الكلام على المفقودين في لبنان. الى اليوم العدالة غير مرحب بها، ولم تكتسب بعد الجنسية اللبنانية".

"علينا ان نحاسب"

في المحطة السنوية لذكرى الحرب، نستحضر الكلام على ذاكرتها، فقط من ضمن طقوس كل ذكرى تمر علينا. ثمة نبش للذاكرة من دون رؤية، فلماذا ننبش الذاكرة؟ فقط لفعل التذكر، ام كي نحاسب ونحدد المسؤولية؟ الى اليوم لم نتعلم شيئاً من الحرب، يقول غسان مكارم (ناشط سياسي) ويتابع "اتى اتفاق الطائف ليتوافق عبره المتقاتلون على ادارة البلد من دون ان يعترفوا بأخطائهم. انهوا النزاع المسلح من دون تحديد مسؤوليات او الخضوع لمحاسبة. برأيي ان نبش الذاكرة سيظل انتقائياً ومرتبطاً بمصالح، وكأن فعل التذكر هو فقط حتى نظهر خطأ جهات دون اخرى، أي للاستعمال السياسي". فهل طوينا الصفحة؟ هنا يشير سليم "الى استمرار حضور ماضي الحروب عبر استذكارها في حاضرنا في البيانات والخطابات السياسية، مما يجعل من هذه الذاكرة قادرة على اعادة انتاج حروب كبيرة او صغيرة. المطلوب اليوم المقايضة: العفو مقابل الاعتذار والاعتراف، اذ يجب على الناس الذين يعرفون شيئاً عن الحوادث المأسوية ومصير المفقودين ان يقدموا هذه المعلومات للناس". ويضيف "أين هي المعلومات التي كانت تملكها الميليشيات السابقة التي كانت تأمر وتنهى في تلك الحقبة؟ هذه المعلومات قد يكون الادلاء بها في مثابة اعتراف عملي منهم".

ان المحاسبة، التي يطالب بها نشطاء المجتمع المدني والحقوقيون لا تعني المطالبة بتعليق المشانق، ولا تعني المحاسبة البوليسية انما المحاسبة المدنية "نحن نتكلم على جرائم الحرب وجرائم ضد الانسانية، وقبل ان نطوي الصفحة يجب ان نعرف كيف سنتحمل المسؤولية" يقول مكارم. ويضيف "كم شجعت ثقافة الصمت على التمادي بالجرائم. نحن نريد أولاً الاعتراف والاعتذار، ثانياً المحاسبة. الناس يجب ان تحاسب في الحياة العامة. كيف سيحصل التغيير في البلد ان لم نحاسب؟ انا كناشط سياسي يجب ان اتحمل مسؤولية جيلي، لا يجب ان تبقى الأمور مبهمة، يجب ان تحدد المسؤولية، يجب ان نحاسب حتى نسامح". وثمة مسؤولية ايضاً تقع على اللبنانيين الذين لم يؤدوا قسطهم في موضوع المسؤولية، ولم يحاسبوا، على ما يقول سليم.

التعبير عن الذاكرة

يبدو ان اللبنانيين يفضلون ابقاء ذاكرة الحرب في سجنها. ففي مسألة التعبير عن الذاكرة، يشير جو حداد (ناشط في المجتمع المدني)، الى ان هناك كماً من التجارب من الألم والأحاسيس والاخفاقات لم يتم التعبير عنها، وثمة موضوع آخر يتعلق بالآخر والعلاقة معه. هي ذاكرة الناس الذين عاشوا الحرب وهي مرتبطة بطفولتهم بأحاسيسهم في اثنائها من خوف وعجز وألم وهروب وانفعالات قوية واشتياق وحزن وصور الحرب ويومياتها... هم لا يريدونها ان تعود وهذا يظهر لنا في ردات فعل الناس عند الكلام على الحرب.

اليوم يبدي الناس امتعاضهم من مشاهدة فيلم عن الحرب اللبنانية "ملينا سيرة الحرب" او "بلا هل سيرة". ثمة ظاهرة دفاعية عن هذه الذاكرة ترغب في إبقائها في سجنها لانها مرتبطة بالتروما، اي الألم النفسي الذي ينتج خللاً وله بعد نفسي، على ما يشرح حداد، وايضاً اليوم عندما نتكلم على حوارات بين المناطق نقول "كلنا صرنا متفقين" وهذه مضادات دفاعية تريد ان تبقي الذاكرة مقفلة. غير ان حداد يشير الى ان "هناك جيلاً تصالح مع هذه الذاكرة، وهو يسعى لأن ينقل تجربته الى غيره وعمل الجمعيات مهم جداً. ثمة مجموعة تشعر ان لديها مهمة ان تذكر بهذا الشيء، لأن هذا وجعها وألمها ودمها وحياتها وللأسف ان عددها قليل".

والذاكرة مرتبطة ايضاً ببعد تربوي وثقافي. هناك حقائق ومعلومات لا يعرفون من أين يحصلون عليها، وكذلك النظرة التحليلية النقدية الى الحرب في ظل غياب كتاب تاريخ. "وما يقلقنا هو ان الجيل الجديد لا يزال يتمسك بالشعارات القديمة" يقول حداد. وهنا تصبح عملية التذكر ضرورية بالنسبة الى الجيل الجديد، حتى لا يقع ضحية الانقطاع التاريخي من اجل تثبيت دعائم المجتمع بعد استخلاص دروس الحرب. فهل لدى الجيل الجديد حصانة؟ تقول حلواني "لا اعتقد. عليهم ان يقرأوا اكثر ويعرفوا اكثر عن خطورة الحرب، هناك تعتيم على الماضي وتجهيل للفاعلين فكيف يمكن ان يتحصن هذا الجيل؟ انا لا اريد ان اراهن على وعي افراد انما اتساءل عن الوعي الجماهيري، فعندما أرى هذه التظاهرات المليونية عند الفرقاء كلهم عمادها الاساسي الشباب الذين يلهثون وراء الزعماء، اخاف عليهم من ان يجيّروا ويصبحوا من جديد وقود الحرب".

الشباب وتجربة الحرب من جديد

اليوم الجميع خائف على الشباب من نزعتهم نحو اعادة تجربة الحرب. الجميع يراقب حركتهم. تقول، ماري تريز خير بنوي، المتخصصة في علم النفس العيادي "انا أدرس في الجامعة واشعر عبر تماسي مع الشباب

ان المناخ سلبي، لأن تجربة الحرب لم تحدث بالنسبة اليهم". هناك جو من الانفصام في المجتمع وتراجع، بمعنى ان هناك عودة للشباب الى طوائفهم". هم يقولون نحن مستعدون للعودة الى الوراء ونحن نلمس هذا الأمر". تتابع بدوي، "لذا لا بد من العمل على الذاكرة. وهذا يقتضي عملاً جدياً لردع خطر حرب ثانية، فالشباب يبدون مستعدين لحمل السلاح وبدء حرب جديدة. وما يجب العمل عليه هو منع عودة الشباب الى الطوائف. هم يبدون كأنهم يرفضون الاستفادة من خبرتنا من دون ان يمروا فيها، وينطبق هنا المثل الصيني "ان خبرة الآخرين هي مثل مشط يمرر على صلعة الآخرين".

اما مسؤولية العمل على الذاكرة فبرأي بدوي تقع على المثقفين لأن السياسيين غير قادرين على ذلك، اذ لا يزالون مرتبطين بالزعامة التقليدية. ان المثقف لديه حرية التكلم التي لا يتمتع بها السياسي لأنه يخشى على زعامته ومرتبط بها "فالمثقف لا يجب ان يكون فئوياً ومرتبطاً بزعامة معينة، وأنا اتعجب من المثقفين اليوم المرتبطين بأشخاص وزعامات، وأتعجب عندما ينحاز لمثقف الى شخص معين". وشدّدت على أهمية الرؤية التربوية الى موضوع الذاكرة".

كتاب التاريخ

الشباب ينحو اليوم في اتجاه اختيار الحرب، ولولا ان قياداتهم تعمل على التهدئة لكانت الحرب اندلعت، يلحظ الدكتور انطوان مسره. ومن هنا فإن جوهر موضوع بناء الذاكرة هو تجنب تكرار الماضي. يقول مثل عربي ان التاريخ يعيد نفسه. لكن التاريخ لا يعيد نفسه، الا لدى الشعوب المتخلفة التي لا تتعلم من التاريخ، "وفي هذا الجانب نحن متخلفون" يقول مسره، في تكرار الماضي، وهذا الموضوع هو الأهم لمستقبل لبنان وخصوصاً لدى جيل شباب لم يعش فترات الحروب كما لمستقبل الاجيال المقبل. فكيف السبيل الى تحصين الذاكرة؟ يجيب مسرة "لا بد من العمل اليوم، لإعادة إحياء البرامج الموضوعة لكتاب التاريخ بشكل سريع، فقد صدرت هذه البرامج عام ٢٠٠٠ في تسعين صفحة وكانت ثمرة جهود ثلاث سنوات مع موافقة بالاجماع من الهيئة الاستشارية في "المركز التربوي للبحوث والانماء" ومرسوم صادر بالاجماع عن مجلس الوزراء وتأييد من الهيئات التربوية، وقد اعتمدت منهجية تاريخية واعطتها ابعاداً انسانية، ولاسيما اننا نعيش في مجتمعات عدة، فأصررنا على ان يكون تاريخ كل لبنان". يضيف "حين قمنا بدراسة وجدنا ان اللبناني يفتقر الى الادراك الشامل لكل مساحة لبنان. عندما تسأل ابن الاشرفية مثلاً عن الحالة الامنية يقول انها جيدة لأنها كذلك في الاشرفية، فيما تحصل الاشتباكات في الحمراء او الجنوب او في طرابلس... فسعينا في البرامج الجديدة لخلق ادراك شامل لكل تاريخ لبنان وجغرافيته وبعد ان بوشر تنفيذ هذه البرامج الجديدة لكتاب التاريخ اصدر احد وزراء التربية تعميماً بتأليف لجان لاعادة النظر في الموضوع، فجمّد العمل في كتاب التاريخ".

• • •

يقول المحلل النفسي فرنسوا فيللا "ان التذكر هو الطريق كي لا نصبح قتلة". عندما نغسل ايدينا من حروبنا، ونرفض تحمل المسؤولية عنها، وننسبها الى الآخرين، هذا قد يؤسس لحروب جديدة مقبلة. فلماذا نرفض الاعتذار عنها؟ ولِمَ نعطلها، حيناً بقرار رسمي وحيناً بصمتنا وعدم المساءلة؟

رلى مخايل

جميع الحقوق محفوظة - © جريدة النهار ٢٠٠٨